

الرواية والخليج العربي

محمود محمد عبدالحميد



[الرواية والخليج العربي]

د/ محمود محمد عبد الحميد - مصر

الهوية والخصوصية لشعوب الخليج العربي وحضورها في الرواية:

تُعرفُ الهوية في اللغة بأنها مُصطلحٌ مُشتقٌّ من الضمير هو؛ ومعناها صفات الإنسان وحقيقته، وأيضاً تُستخدمُ للإشارة إلى المعالم والخصائص التي تتميزُ بها الشخصية الفردية^(١) أما اصطلاحاً فتُعرفُ الهوية بأنها مجموعة من المُميزات التي يمتلكها الأفراد، وتُساهم في جعلهم يُحققون صفة التفرّد عن غيرهم، وقد تكون هذه المُميزات مُشتركة بين جماعةٍ من الناس سواءً ضمن المجتمع، أو الدولة.

ومن التعريفات الأخرى لمصطلح الهوية أنّها كلُّ شيءٍ مُشترك بين أفراد مجموعةٍ مُحدّدة، أو شريحة اجتماعية تُساهم في بناءٍ مُحيطٍ عامٍ لدولةٍ ما، ويتمّ التّعاملُ مع أولئك الأفراد وفقاً للهوية الخاصة بهم^(٢).

إنّ الهوية الخليجية هي تلك الخصائص والسمات الثقافية والاجتماعية المشتركة التي تميز المجتمع الخليجي عن غيره من المجتمعات، والتي هي مُحصلة تراكمات تاريخية، صاغَت العقل الجمعي الخليجي، وشكّلت تصورات الخليجيين لأنفسهم ولغيرهم، كما وجهت سلوكياتهم وعلاقاتهم وأساليب معيشتهم.

والهوية ليست من المفاهيم والمصطلحات الثابتة المغلقة؛ فهي في حالة تطورٍ وتشكّلٍ دائمين، فالهوية الخليجية اليوم، غيرها قبل خمسين سنة، لكنّ الهوية رُغم ما يلحقها من تغييرات، ورُغم انفتاحها على غيرها من الثقافات فإنها تظلُّ محافظةً على الخصائص الجوهرية المُميزة لها، مانعةً نفسها بكل السبل من التماهي مع غيرها من الثقافات المختلفة التي غمرت المنطقة العربية ووسمت أغلب أفرادها بالفكر الغربي والتبعية الغربية حتى كادت الهوية العربية

(١) معجم اللغة العربية المعاصر، د/ أحمد مختار عمر، مرجع سابق، "هوية".

(٢) مدخل لدراسة الهويات الوطنية - "دراسة سوسولوجية لحالة الهوية الأردنية"، محمد الجريبي، د.ت، ص: ٤٥، بتصرف.



عامّة والخليجية خاصةً في طريقها للزوال رُغْن تَنَبُّه الغيورين من أهل المنطقة على إعادة بث الروح وبعثها في الهوية العربية والخليجية.

ومن المعلوم بالضرورة أن وجود الهوية قد أسهمت في زيادة الوعي بالذات الثقافية والاجتماعية، مما ساهم في تميّز الشعوب عن بعضهم بعضاً؛ فالهوية جزء لا يتجزأ من نشأة الأفراد منذ ولادتهم حتى رحيلهم عن الحياة، كما أسهمت فكرة الهوية في التعبير عن مجموعة من السمات الخاصة بشخصيات الأفراد؛ لأنّ الهوية تُضيف للفرد الخصوصية والذاتية، كما أنّ الهوية بمثابة الصورة والمرآة العاكسة لثقافته ولغته وعقيدته وحضارته وتاريخ الإنسان، كما أنّ الهوية قد أسهمت بحدّ كبير في بناء جسور من التواصل بين كافة الأفراد سواء داخل مجتمعاتهم، أو مع المجتمعات المختلفة عنهم اختلافاً جُزئياً مُعتمداً على اختلاف اللغة، أو الثقافة، أو الفكر، أو اختلافاً كلياً في كافة المجالات دون استثناء.

نتوصل من هذا إلى أنّ كلّ أمة وشعب له ما يميزه ويبرز خصائصه عن الآخرين في عاداته وتقاليده وأفكاره وأنماطه؛ فلكل شعب وأمة بصمتها الخاصة التي لا تتكرر عند الآخرين.

وأخيراً وبعد استعراض نشأة الرواية في الخليج ووقوفنا على مراحل تطورها، وأهم ملامحها توصلنا - في حدود الدراسة والاطلاع - إلى أنّ الرواية الخليجية لا تُشكل وحدةً متجانسةً بالرغم من التجانس الثقافي والديني والتاريخي والجغرافي، وهذا التفاوت يشمل الجانب الكمي والنوعي للمُنجز الروائي.

لقد "راهنّت الرواية الخليجية في طفرتها الأولى والتي تمتد حتى نهاية العقد التاسع على سرديات الصحراء والماء بوصفهما عنواناً مؤكداً لهويتها الخاصة ذات النكهة المتميزة ولكن هاتين الثيمتين لم تكونا منفصلتين أبداً عن تشكل المدينة وتطورها معنىً ومبنىً، ولذلك فإن حضور هاتان الثيمتان في السرديات الروائية الخليجية كان تعبيراً عن التوجس من تعمق المدينة الخليجية وتعاضلها.

أما الطفرة الثانية التي تمتد من التسعينات وحتى الآن فقد جنحت إلى السرديات الخليجية إلى الذات الفردية دون حرص على ملامسة القضايا الموضوعية أو التاريخية المرتبة بالمدينة"⁽³⁾، وهكذا استطاعت السردية الخليجية أن تتمثّل في جماليات السرود الكلاسيكية

(3) الرواية الخليجية إلى أين؟ الرشيد بوشعير، د.ت، ص: ١٠٠.



والرومانسية والواقعية، ومالت في العقدين الآخرين إلى الحداثية وما بعد الحداثية، كما مالت إلى التجريب^(٤)، ومن المظاهر الملفتة في الرواية الخليجية هو كثرة الأعمال الروائية، ونموها السريع، ولعل السبب الرئيس هو الطفرة الهائلة التي شهدتها المنطقة، وتهافت دور النشر على نشر الروايات، بالإضافة إلى التغيرات السريعة التي تعد منبعاً خصباً للمُتخيل الروائي لدى الأديب، كما انتقت الرواية الخليجية من الشفوية إلى الكتابية انتقالاً سهلاً وسلساً.

وأخيراً فقد توصلنا إلى أن السرديات الخليجية أفادت بشكل كبير من الموروث الشعبي الشفوي^(٥)، كما لجأت الرواية الخليجية إلى التجديد في التقنيات التي تُعنى بجماليات الكتابة، مثل الكتابة السردية الرقمية كما فعلت الكاتبة رجاء الصانع^(٦) في رواية "بنات الرياض" ومحمد سناجلة (أردني) في رواية "ظلال الواحد".

ومن سمات الهوية الخاصة للمجتمع الخليجي هو أن الرواية الخليجية قد تخلت عن النفس الملحمي الطويل، ومالت إلى النفس المتوسط؛ حيث نادراً ما تلجأ الرواية الخليجية إلى المطولات الروائية، مثل: خماسية "مدن الملح"، وثلاثية "أرصد السواد" للكاتب عبد الرحمن منيف. وفي نهاية المطاف تُنبه الباحثة إلى ضرورة الحفاظ على الهوية؛ فهي ما تميزنا عن غيرنا، وشعوب العرب عامة، والخليج خاصة يقف أمام تحديات عصبية في سبيل مواجهة ذلك الغزو الثقافي الذي غمر الشعوب العربية والخليجية.

(٤) التجريب مُصطلح يُطلق على كل محاولة جديدة في الأدب تحمل معاني الجدة والابتكار، أو هو فتح أبواب وأفاق جديدة، وللتجريب مصطلحات كثيرة متعددة، (لمزيد من التفاصيل، انظر في ذلك): "التجريب في فن القصة القصيرة من ١٩٦٠م - ٢٠٠٠م"، د/شعبان عبد الحكيم، العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دسوق، ٢٠١٠م، ط ١ - "القراءة والتجربة، حول التجريب في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب"، سعد يقطين، دار الثقافة، المغرب، ١٩٨٥م، ط ١.

(٥) ومما تنبهت له الباحثة أنها قد وجدت أعمالاً روائية اجتازت الموروث الشعبي لنجدها تتعمق في الجانب السيكلوجي، مثل: رواية "جروح الذاكرة لتركي الحمد"، ورواية "الرياض - نوفمبر ٩٠" لسعد الدوسري.

(٦) رجاء بنت عبد الله الصانع، ولدت في ١١ سبتمبر ١٩٨١، في مدينة الرياض، وهي كاتبة وقاصة سعودية، اشتهرت بروايتها [بنات الرياض] التي نشرت أول الأمر في لبنان عام ٢٠٠٥، وباللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٧، وقد عملت استشارية في مستشفى الملك فيصل التخصصي ومركز الأبحاث بالرياض.



حالة التراث الثقافي في منطقة الخليج العربي والتحديات الماثلة:

يُواجه التراث الثقافي في منطقة الخليج العربي كثيراً من التحديات؛ خوفاً من تماهيه، وزوال ملامحه في ظل تلك الضغوط المتزايدة من والإغراءات المتعددة من أفكار وثقافات هي غريبة على المجتمع العربي عامةً والخليجي خاصةً، ومن هنا تتبهِ الدول والمؤسسات العربية والخليجية إلى إعادة نفض الغبار عن تراثنا وتوفير كافة السبل المُتاحة من أجل إعادة بث الروح فيه بعد هجره ونسيانه، وهم في انطلاقتهم هذه إنما يحافظون على هويتنا؛ فموروثنا جزء لا يتجزأ من ماهيتنا الثقافية التي تميزنا عن غيرنا من شعوب الدنيا.

ومن هنا تتم حماية جميع التراث الثقافي في جميع أنحاء العالم من خلال قوانين وطنية، ومُعاهدات دولية.

ومن أهم الإنجازات التي تؤكد حماية المؤسسات للتراث الثقافي ما قام به معهد الشارقة للتراث؛ حيث نَظَمَ معهد الشارقة للتراث ندوةً فكريةً حَوَلَ التراث الثقافي في دُولِ الخليج العربي، يومي السادس عشر والسابع عشر من شهر مارس لعام ٢٠١٦م؛ وقد شارك في هذه الندوة باحثون من مختلف دول الخليج، لمناقشة الواقع والتحديات في التراث، وتتناول مواضيع متنوعة تتوزع على ثلاثة محاور رئيسية هي المحور الأول: حالة التراث الثقافي في منطقة الخليج العربي والتحديات الماثلة، والمحور الثاني: التدابير الوطنية لحصر عناصر التراث الثقافي، والمحور الثالث: آفاق التعاون المشترك وتعزيز آليات التبادل الثقافي.

وتهدف الندوة إلى تقييم الجهود المحلية والوطنية لحالة التراث الثقافي والتحديات الماثلة على مستوى منطقة الخليج، ومناقشة الاستراتيجيات الوطنية لصون التراث الثقافي، وتطوير العمل المشترك لوضع استراتيجية موحدة للسير عليها والاهتداء بمرئياتها.

وأخيراً فإنَّ حماية التراث هي فرضٌ جماعيٌّ على الذاتِ العربيةِ عامةً، ومن غير المقبول التقصير في هذا الفرض؛ ذلك لأن التقصير فيه لا يعود بالضرر على شخص بذاته وإنما يمس الأمة العربية بأكملها، وهي في تحدياتها المستمرة والمتواصلة للحفاظ على هويتها الثقافية من ذلك الطُغيان والغزو الفكري والثقافي الذي تغلغل في جوانح الأمة العربية حتى كاد أن ينجح في طمس معالمها المُشرقة.

